

تيارا فلسفة الحقوق

المبادئ الفردية والاجتماعية

بقلم الاب فليكس سوانيرن اليسوعي

بسم الله تعالى يقول : ان للخير الاسمي ٢٨٨ تعريفاً ولقد ذكر في
كان تعريف الحقوق ما لا يقل عن هذا العدد .

ان فلسفة الحقوق اشبه عيذان قتال ، واذا كان حقاً إن
احتكاك الافكار يولد نوراً جديداً فقد كان من نصيبنا ان يعطينا البهر .
اما من حيث الواقع فان تضارب الآراء في هذا الشأن ما هو الا ضباب تجدد
شمس الحقيقة بعض المشقة في اختراقه .

ويبدو تاريخ فلسفة الحقوق للوهلة الاولى كأنه من جمجمات الادمغة ولكن
اذا انمنا الروية فيتضح لنا ان ثمة ما يشبه المحورين قد دارت حولهما المشاهدات
واصبحت على بحر الاجيال قطبي التطور .

واراني لا اتحدث عن اولئك الذين ينكرون وجود فلسفة حقوقية :
كايستور ومن هذا حذوه من خلفائه لان انكارهم الجازم ليس الا مفهوماً
فلسفياً يستند الى جعل الحق قائماً على القوة اما غيرهم فيجميعهم يتأرجحون بين
الفردية والاجتماعية .

ولم اتخذ على عاتقي بحث تاريخ هذين التعليلين وانما اردت ان ابسط
لمحة خاطفة عنهما لاجل احدى بالآخر ووضحهما بذلك وابتين الحاضر بالماضي .

وكما انه لا بد لنا اذا اردنا معرفة احدى الاغراس من ان نعرف خاصتها
الجنسية التي تنزع الى استتمام نموها بموجبها فكذلك نستطيع فهم اشكال
الفردية والاجتماعية الاصلية اذا ما عرضناهما كما هما الان .

فما هي الفردية وما نفهم بها ؟ : ان الفرد الانساني هو كائن تام بذاته

حرٍّ ومستقل بطبيعته . والبشر قد كثرنا المجتمع على تفاوت في الحرية لأن وجودهم سبق وجوده فلذلك هو غير طبيعي وتركيب انطباعي من اجزاء . متمسكة . والذي تزعمه كائنًا اجتماعيًا ليس إلا وهماً حقوقياً جسسه عقلنا .

وبدحض وجدان الافراد وحريةهم كل مركب متجسم لاحق وما من مبدأ حيوي يزيد وجود هذا المركب من اجزاء . ما برحت محتفظة باستقلالها التام .

وينجم من نظرية الكائن الاجتماعي هذه نتائج سزاها تنبش شيئاً فشيئاً ، اما الرأي الماكس فباذا نسيه ؟ : لقد اطلقوا على اشكاله المتطرفة

اسم (الدولة العضوية) « Organicisme » و (الاجتماعية في الدولة) « Etatisme » و (الامبراطورية المسببة) « Césarisme » و (الدولة الجماعية) « Totalitarisme »

الخ... وثمت من هذه الآراء . رأي اشد اعتدالاً واعظم فائدة ولكن من سوء الحظ لم يجدوا له اسماً غير الاجتماعية « Socialisme » وهو الاسم الذي ينطبق

عليه تمام الانطباق بالنظر الى اشتقاقه اللغوي وانما قد قصرنا معناه على تعليم خاص ما هو بالواقع ألا انحراف بلفظه عن معناه الاصلي وقد اخذ يستغله احد

الاحزاب - وانني لا ارى سبيلاً ألا الاحتجاج على هذا التجاوز اللغوي - وسوف اطلق كلمة « اجتماعي » في بحثي هذا على التعليم الذي يؤيد اولية الاجتماع .

وها هي ذي خطوطه الرئيسية : ان الفرد الانساني هو اجتماعي بطبيعته اعني

انه لا يكسل الا بغيره وهو بصفة كونه فرداً ليست انسانيته الا بجزءة مقسمة وما الانسان الحقيقي الا جزء من الكل الاجتماعي سواء . أكان ذلك من حيث

حياته الحيوانية ام حياته العقلية - ولم يخرج من حيوانيته المحض الا النطق وهو لا يارس قواه الا في المجتمع وليست العلوم والفنون والصناعات والسعادة

نفسها الا اموراً اجتماعية وبما ان طبيعة الفرد هي بمثابة الجزء من المجموع فالكل الذي يتكون منها هو اذاً طبيعي اما الوجدان والحرية فليسا عائقين لبحرول

دون هذا المركب وانما هما رابطتان من الروابط الشديدة التأثير .

وقد ترتب على نظرية الكائن الاجتماعي هذه نتائج مهمة فنجت عنها .

واننا نسمد الان الى النظر في الاشكال التي اتخذتها على مر التاريخ

١ - العهد الروماني الروماني القديم

١ - العردية

كان شكل الفردية المعروف في الغرب الشكل الابيقوري. فعندما شرع ابيقور (٣٤٢-٢٧٠) يعلم وذلك حوالي سنة ٢٣٨ اي بعد موت ارسطو بستة عشر عاماً كانت البلاد اليونانية برمتها من اثينا الى ثيبة فاسبارطه قد سقطت تحت سيطرة مقدونية فانقطعت فيها الحياة السياسية والقومية واخذ الايغال في القومية بالزوال فانقطع ابيقور ليحيا لنفسه بعد ان سمّ الجدل المتافيزيقي الذي استغرق مجهودات الجيل السابق الجسارة وشرع بالبحث فقط عن قاعدة علمية للسلوك مكفياً باسنادها الى احد المناهج السابقة لقرطاف. فشيّد علم الاخلاق على نظرية ديموقريطس الذرية التي مؤداها ان المجتمع هو مجموعة من الذرات الانسانية كانت اتفاقاً وتربطها بعضها ببعض المنفعة، فالقاعدة الواحدة للحياتين الخاصة والعامة هي البحث عن اللذة المغطى المسكنة لانيها التزعة الطبيعية. وما العدل الا في توازن المنافع وما الحق الا عقد لتحقيق هذا التوازن اما الحياة العامة فصدر الملل فلذلك يجب التخلص منها بأسرع ما يمكن.

وليت الابيقورية الا فلسفة جميع ضروب الانحطاط وهي التي كانت فلسفة الانهلس باللدائد عند نباية الجمهورية الرومانية والملكية الفرنسية.

وكان رفاق هذا الفيلسوف في روما (اتيكرس) «Atticus» و(هوراس) «Horace» وبعض الرجال السياسيين والانتهازيين وغواة الموسيقى والفنون. واسبق لوكرس (١٨ - ٤٥) Lucrèce على تعليم ابيقور وشاحاً رانماً واذاف اليه علم اجتماع اشد اتساعاً. وقال في هذا الشأن: لقد قبع البشر رداً طويلاً من الزمن في حياتهم الانفرادية حتى تنظّموا في ممالك تحولت الى طليان ولم يطل به الوقت حتى كان مجلبة للشوة والقوضى. فلم يكن امام البشر للخروج من هذا المأزق الا ان وضعوا «العقد الاجتماعي».

« cf. De Natura Rerum, L. V, ٢٢, 928, 1134, 1141 »

ولقد خُفّ لوكرس بصفة كونه رومانياً حقيقياً من غلوا. فرديته الاجتماعية بوطنية واقعية.

ب - الاجتماعية

يُعدّ افلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧) جد الاشتراكية « Collectivisme » ومن اقواله في هذا السيل ان المدينة هي جهاز عضوي طبيعي تكونت كما تكون الفرد تماماً .

والانفس الثلاث في الانسان : العقل الاسمي « νόμος » والعقل الاوسط الحيواني « ἡσυχία » والعقل المنحط النباتي « ἐπιθυμία » تقابلها الطبقات الثلاث الاجتماعية وهي طبقة الفلاسفة والمحاربين والمزارعين ، وكمال المدينة في وحدتها التي ينبغي لها ان تتحقق تمام التحقيق ولذلك لا بد أولاً من اخضاع الطبقات بعضها لبعض اخضاعاً كاملاً فيجب ان تقوم طبقة الفلاسفة في الرأس لان العقل هو الذي يدير العالم . ثانياً العالم الاثرة (الانانية) بجميع ضروبها اي العالم ما هو لك وما هو لي في كل الامور فليس من ملكية خاصة والمدينة عملة واحدة فاطمائها وناؤها ثانطان بين الجميع .

والفرق بين اشتراكية افلاطون واشتراكية يومنا يقوم على ان افلاطون يريد ان يشيد مملكة العقل والمحبة اما الآن فيريدون تشييد المساواة واستقلال الافراد المتبادل على الماديات . وتقد ارسطو (٣٨٤ - ٣٢٢) استاذ في كتابه السياسة (الجزء الثاني ف. ١ - ٢) نقداً راثماً وقال في هذا الشأن : الوحدة ليست الخير الاسمي ولا الابقاع جمال الموسيقى الاسمي ، فالعيلة هي اساس المجتمع وفيها تتخذ المحبة جذورها لتستند منها الى اقطار المدينة اما المنفعة الخاصة فهي حافز ضروري وما جمهورية افلاطون الا وهم من الاوهام .

دها هي ذي جمهوريته .

ان غاية الحياة الانسانية او السعادة في جوهرها هي العلم . وما من سبيل بلوغ هذه السعادة الا بالمجتمع الذي لا يستطيع الافراد واليال الازدهار الا فيه فلذلك هو طبيعي ولا يعني قولنا هذا انه غريزي محض لان الانسان يفكر ويريد ما تطلبه طبيعته . وما على الجهود التي يبذلها المجتمع الا ان تنزع الى تعزيز الحياة العقلية ولا متناً - حياة - النخبة - المفكرة - فاحترام النظام الاجتماعي في سبيل المصلحة العامة هو العدل « δικαιοσύνη » خير الفضائل .

ولا محل في فسة ارسطو للحق الفردي ولكن من دواعي الاسف انه اردف قائلاً ان اليونانيين هم الشعب الوحيد المتدن في الارض وان الطبيعة تسح بطاردة العبد . ولقد رأينا ان الاوضاع السياسية بعد ارسطو لم تفسح المجال لضروب الجدل النظرية العليا فذلك اصبحت الفلسفة عملية فقط . وبينما انحاز ابيقور الى انتهاج طريق اللذة السهل وانصرف بديون «Pyrrhon» الى تأسيس مدرسة يغواة الموسيقى والفنون فان بعض ذوي العقول السامية انمازوا الى تأييد العقل . وزينون مؤسس هذه المدرسة هو احد ابنا قهرص وهو فيثقي الاصل قد تبنى الاعريقية .

نعم لقد علم زينون (٣٣٦ - ٢٦٤) في اثينا حوالي سنة ٢٩٢ في رواق مزدان بالزخرف والنقش (stoa) وناقض ابيقور في كل تعالیه تقريباً ، ومن اقواله : ليس الانسان والعالم مجموعة متأسكة الاجزاء . كان حدوثها على سبيل الاتفاق وانما ما كانت منظمة نفعها العقل «Logos» الشامل الالهي الذي هو ضرب من الاثير الدقيق الماقل . فكل نفس هي جزء من هذا العقل ولذلك جميع البشر اخوان فالحدود السياسية والفوارق الاجتماعية مبتدعات اصطناعية وما القانون الا تعبير العقل الشامل الالهي «Logos» فاذن هو شامل وطبيعي . اما الحقوق الوضعية الخاصة فهي من المبتدعات الاصطناعية وليس للحكيم الا وطن هو الكون . وافضت به محبته للانسانية جماء الى ان يلتقي مع فردية ابيقور . وقد تبنى الاخاء الانساني واقام الدليل على صحته بفلسفة متافيزيقية ، اما عبادة الانسانية البعيدة فتعوض عن خدمة القريب الذي يعاشنا والزبوني انسان فوق الانسان وهو لا يحتلط بالبشر الا اقل ما يمكنه الاختلاط بهم . وكانت هذه الفلسفة السامية المترهلة اقل شعبية من الابيقورية ومن جراء مرورها برزوا تحت ميزة اشد انسانية .

وقد اعارها شيشرون (١٠٦ - ٤٣) «Cicéron» اولا ضوته الجمهوري . ففي منتصف القرن الاول قبل المسيح وحوالي السنة الحين كانت الجمهورية الرومانية تسير في طريق الانحلال . وبسبب اعادة تشييدها تشييداً واضحاً منذ عيد سيلاً المتبد (٨٢ - ٧٨) فقد تزلت بها الضربة القاصمة سنة ٦٠ بتأسيس

الديكتاتورية الثلاثية . وبعد وفاة كراسس (٥٣) « Crassus » لم يبق من ذلك المثلث الا قيصر وبومبيوس ، وعقب موت بومبيوس قامت تحت ستار الديمقراطية الامبراطورية المتبددة استبداداً مطلقاً (Césarisme) لان قيصر عبر نهر ريبكون « Rubicon » سنة ال ٤٩ وعُين سنة ال ١٥ ديكتاتوراً مدى الحياة وفي ذلك العهد ظهر في روما مؤلفان عظيمان في فلسفة الحقوق : الجمهورية (de République) ، والقانون (de Legibus) وواضعهما شيشرون وقد بسط في الاول نظريته حول سلطة الجمهورية في الوقت الذي كانت تسير فيه الى الانهيار وفي الثاني نظريته حول القانون والحقوق بينما كانت تتآزر الدكتاتورية والفوضى على تجاهل القانون .

وكان شيشرون فارساً وديعاً ومحامياً كبيراً ومن ثم رجلاً سياسياً فعّين قنصلاً وهو في الثالثة والاربعين من عمره وأُطلق عليه لقب «اب الوطن» بسبب انقاذه له من الفوضى (يذكرني بوسوليني) ولكنه كان اقل لباقة وقوة من خصومه فنزل ونُفي ، وبعد عودته الى روما في عهد الامبراطورية الثلاثية عُين بروقنصلاً في كيليكية وجعل نفسه محبوباً فيها على غير ما كانت عليه العادة . ولقد شهد بعد موت قيصر قيام ديكتاتورية انطونيوس التي كانت شرّاً من سابقتها فناضل مناضلة الشجعان ولقي خطبه الرائعة « les Philippiques » ولقي حتفه في سبيل الدفاع عن قضية الحرية والعدل ، واذا ما تكلم حتى علينا ان نصفني الى اقواله .

ومردّ الفضل الى شيشرون في ايجاد اللغة الفلسفية اللاتينية التي نستشر فيها شيئاً من شبابه ، ولقد دافع عن فلسفة زينون واكد امام الابقوريين الذين يعتبرون الفضيلة والحقوق اصطلاحات نافعة مرنة ميزتهما المطلقة وعول على الاسباب نفسها التي اوردها الاستاذ وما قاله في هذا الصدد : الانسان من اصل الهى وعقله يجعله نسبياً للآلهة ومن مواظبتها فهو اجتماعي بطبيعته كما يدلّ على ذلك الشبه الجوهرى بينه وبين البشر والمحبة التريزية التي يضرها لهم اما الفوارق بين الافراد فتاجمة عن الفساد الطبيعى وليس من الطيبة اما الانسان فيشعر في نفسه انه مواطن للناس برمتهم . « Civem totius mundi quasi unius urbis » (de Legibus, I. ch, 10, 11, 23)

ومع ذلك لم يبلغ به الحد الى اسكار الوطن الموضعي (ibid. II, 1)
ولقد قال : ان الحقوق هي النظام الاجتماعي وهدفها وحدة الجميع (ad com-
municandum... justos natura nos esse factos (ibid. ch. 12)

فهي اذا طبيعية بنحورها لا صلة لها بآية معاهدة وبآية منفعة كانت .
(ibid. I, 15)

وكان شيشرون بعيداً عن اتخاذ لهجة المجاملة للتدليل على نظرية المنفعة الايقورية :
« Jus esset latrocinari... si huic suffragiis aut scitis (décrets) multitudinis
probarentur » (ibid. c. 16).

ومما قاله : ان اساس الحقوق المباشر هو المحبة : Natura propinqui
sumus ad diligendos homines, quod fundamentum juris est » (ibid. c. 15)

وهذا ما يسفر عن ان ما يأمر به القانون هو طبيعي فاذاً هو شامل
وضروري لا يتغير وسابق لكل تسميع وضعي فالقانون هو عقل الحكيم
الذي وجد تعبيراً عن ذاته ولم يزد عليه ما كتبه شيئاً . Ante nata quam
scripta, orta simul cum mente divina » (ibid. L. II, c. 4)

وهو امر العقل الشامل اما القوانين البشرية فليست الا احكاماً للتنفيذ
(ibid. c. 6) فاذا ابتعدت عن القانون الطبيعي كانت لصوحية محضاً فهمة
القاضي اخطر شأناً من مهمة القانون . Dici potest magistratum legem esse
loquentem, legen autem mutum esse magistratum » (ibid. L. III, c. 1)

انما لنظرية لا ينتقصها المظهر على رغم ما فيها من ثلمات . نعم ان فيها
ثلمات : اولها واشدها خطورة عدم استقرارها . اجل لم يسبق لاحد قديماً ان
تكلم على الحقوق وكان افصح من هذا الحمامي الكبير في مدافعاته ، ولكن
أزى نظرية واحدة من نظرياته الكبرى لم تساوره يوماً الشكوك حولها البائدة
على القلق، فان عباراته الخطابية لا تنطبق دائماً على اعماله وذلك خلا ما ينتقصها
من الدقة والبراعين وان كانت على الجملة فلسفة العقل الرشيد وقد اصطفت
بصباغ علم ما وراء الطبيعة الزينوني واعني بذلك انما مرتكزة على اساس
سريع الانقياد . وزد على هذا ان شيشرون قد تجاهل طبيعة الحقوق الوضعية
الحقيقية . وقد اغرق في اطرائها اغراقاً جعلها تقيب معه عن الابصار اذ انتزع
منها النقط الانسانية القرضية بواقع الحال . فكان على شاكلة جميع الوثنيين

القدما . على رغم العبارات الشاملة التي ابدى بها رأيه اذ المحبة التي قال بها ضيقة جد الضيق عنده عملياً « اي انها محبة كلامية اكثر مما هي عملية » *« Censent antem sapientes sapientibus etiam ignotis esse amicos »* (*ibid.* l. c. 44: et de Legibus l. IX. ch. 12).

ونرى فلسفة زينون تتخذ مع سينيكا « Sénèque » (١ - ٦٥) لوناً جديداً . وما ورد في كتاب « السياسة لارسطو ٣ - ٢ » العبارة التالية :

« بالقانون الحكم للعقل وبدونه للطبيعة الحيوانية » .

وتقد صرح قول ارسطو كل الصحة في العصر الذي عاش فيه سينيكا، اذ كان بالاستطاعة في عهد الاباطرة السابقين ايضاً التحدث عن الحقوق والمساواة اما في عهد نيرون فانقضى الامر ، وكان الفيلسوف استاذاً لهذا الامبراطور وعرفه عن كثب وذلك قبل ان يكون من ضحاياه

وعبارات سينيكا الاديب الطنانة تشير الى انه كان من الاسبان المثقفين ثقافة اغريقية وتوضح سبب احتقاره للمجتمع الروماني .

وعلى رغم كون سينيكا محامياً وفيلسوفاً كثيرشرون فقد قصر عمله على الفلسفة الاخلاقية لان السياسة كانت مغلقة في وجهه حتى كانت الفلسفة معه عملية اكثر من اي وقت مضى فكان مرشداً للنفس ، اما رسائله الى الشاب لوسيليوس *Lucilius* « فشيعة » .

وكان يرى ان علم الاجتماع يقوم على مبدأ التضامن العظيم الشامل ولذلك اعرب عن هذا الرأي بعبارة رائعة *« Membra sumus corporis magni, ... natura nobis amorem indidit mutuum et sociabiles fecit, ... in commune nati sumus »* (Lettre 95) .

واذا كان قد ارضى شؤون السوق الرومانية فلكونه اسباناً « *Patriam nobis mundum professi sumus* » (de Tranquillitate c. 3) - « *meliores erimus singuli* » و

واستد سينيكا مفهوم ارسطو بعدد غاية الانسان : غاية الحياة هي العلم، واطاف الى ماوى المدرسة الزينونية شيئاً من الكبرياء والاثرة (الانانية) المتأصلة وانما لنا ثمت ما يحملنا على الشك في صدقه كما نتشر ذلك من ذرائعه

الخصائية استمرارية فيه من الربيب وفي نراه لا يتورع عملياً عن قبول
فض الخلاقات بطريفة التسوية او لا نراه قد ايدي ذلك الفتى التي نصيحتة
قائلاً له ان يحتفظ بامواله ليعود عدم الاهتمام لها

وكانت خاتمة حياته العادية ان مات ميتة الابطال اما تأثيره الذي كان
ضئيلاً في حياته فقد تدنى فوراً الى الصفر بعد مماته .

وبعد من الزينونيين ايضاً فيلسوفان اخران معروفان هما : ابيكتيت (٥٠ .
١٢٠) (Epictète) الذي وضع نظرية الحرية الداخلية ولم يتعرض للحرية الثانية
والثاني مارك اوريل (١٢١ . ١٨٠) (Marc-Aurèle) الذي جهد جهده في ممارسة
السلطة من دون ان يفلسفها .

٢ - مافدم الشرق اليهودي المسيحي في هذا الباب

اثر الشرق على الفلسفة في اتجاه جديد اذ جعلها اشد عمقا بتدعيه لها في
آن واحد اساساً متافيزيقياً ودينياً وطيداً . فالحقوق في معتقد اليهود دينية وفي
جوهرها اجتماعية لان كلمة الله هي التي انشأتها فأخذ بها الشعب لا الافراد :
ذلك الشعب الذي اختير لها واندفع اليها وكفى بها وعوقب بحسبها وغفرت
له مساويه بوجوبها

ولم يتفق عبادة قانون قط ان رفعت الى منزلة اسمى من هذه المنزلة وانما
كان قانوناً مؤقتاً سنّ لشعب تقوم مهمته في الحفاظ على ايمانه بانتظار الوحي
الجديد الحاسم وقد بلغ به الكبر عتياً ، اما الجديد الذي جاء به الانجيل فلم
يكن بحثاً نظرياً وانما الحياة قبل كل امر اخر .

وتقوم هذه الحقيقة الحية على كون الحقوق السامية قد شيدت نهائياً على
حكمة الله وارادته الالهية لا على « لوغوس » الكلمة العائمة الاشخصية وانما
على « لوغوس » الكلمة الحقيقية .

والخالق الذي صار انساناً وتجدد ليشخصه كل عدل وليضع اساساً
جديداً للاخاء الانساني وليكمل الحقوق الطبيعية بحقوق فائقة الطبيعة لا تنافي
الاولى قد جعل منها اداة لغاية سامية كل السر .

ولم تكن الفلسفة في غضون عهد ابا. الكنيسة لتسير عن علم اللاهوت
بيد ان الحياة المسيحية العملية ومباحثات الاباء النظرية قد افضت الى السير
قدماً بالنظرية الاجتماعية الحقيقية ، ولا يعجز الاختصاصي الايمان بالبرهان
على ذلك .

واراني اعمد الى الانتقال الى الذي نظم هذه المواد التي كانت قد جمعت قبله

٣ - الفريس توما الاكوييني (١٢٢٦ - ١٢٧٤)

رأى القديس توما النور تحت سماء ايطالية الصائبة ومارس مهنة التعليم في
باريس وبصفة كونه من ورثة الفلسفة اليونانية وروما القديمة فقد كان لاهوتياً
وفيلسوفاً عقلياً مؤمناً بمعنى الكلمة الصحيح كما كان عالماً من علماء ما وراء
الطبيعة دقيق الملاحظة اكثر مما يدور بخلدنا .

ولقد تبنى القديس توما نظرية علم الاجتماع على طريقة ارسطو ولم ينتهجها
ليكون عبداً لها وانما اصلحها واكملها .

ونسخ باديء بدء من نظرية علم الاجتماع عنصر الفردية فقال ان المجتمع
لم يكن لاسعاد بعض المثقفين المحظوظين ولا سلبهم كمالهم وانما الذي لا ريب
فيه هو ان غاية الانسان الاخيرة هي المعرفة والقبطة والكمال نعم انما المعرفة
التي هي اسمى من جميع معارف العلماء ، ولا يستطيع الانسان في هذه الارض
الا ان يثأب لها ولا سيما عن طريق المحبة التي هي في متناول الجميع .

وقد اعرب عن علاقة الفرد بالمجتمع بما يشير الى ماهيتها الغائية والتركيبية
فقال ان المجتمع كل طبيعي والفرد بطبيعته جزء من هذا الكل .

وان الجنس الحيواني هو حقيقة واقعية اسمى من الفرد واذا كان الانسان
بنفسه الخالدة اسمى من المجتمع فذلك لا يحول دون ان يكون جزءاً منه في

حياته الزمنية . وان غايته بصفة كونه احد اعضاء المجتمع هي القبطة الناقصة
الممكن تحقيقها في الارض . فهي اذا شبيهة بنائية كل المجتمع فعليه ان يخضع
نفسه لكل امر وان يضحي بها عند الحاجة في سبيل الدفاع عن هذه الغاية
فالخير العام فوق الخير الخاص الذي يشتمل عليه .

ان الحقوق لامر اجتماعي ، وان ما هو عدل ويأمر به العدل الاجتماعي ينطبق على الخير العام . اما الحقوق الفردية فلم يتعرض لها اكثر مما تعرض لها ارسطو ؛ وهو من الاجتماعيين .

ان القديس توما هو من فلاسفة القرون الوسطى المدرسين وانا لم اورد الاستشهادات وانما ينبغي لنا ان نرى جميع فلسفته .

٤ - عصر النهضة والاصلاح

لقد رفعوا الفردية الى السماء الاغزل في القرن السادس عشر وذلك بعد ان جاءت جميع العوامل تفرزها : من النهضة التي تقدّس الانسانية الى الاصلاح البروتستانتي الى القوضى السياسية فاجتاحت جميع الاجواء وتأسكت جميع اشكالها الدينية والادبية والاخلاقية والاقتصادية والسياسية في تشابكها وعملت كلها ممّا على تقويتها . فالاصلاح البروتستانتي وضع الانسان وجهاً لوجه مع الخالق^{١)} ، فالكنيسة ليست عندهم جساً اجتماعياً منظوراً وانما هي جماعة الارواح وجملة المحدودين من قبل . وجمعت حرية البحث السلطة الكنسية بدون فائدة . ولقد اعترت السلطة المدنية ازمة ايضاً وهي الازمة التي غرزاها لوتير في المانيا اولاً وقواها عندما قادها الاضطلاع باعياً . المصالح الدينية حتى ما كاد ينقضي بعض الوقت لنشعل الثورة باسم الدين على الامراء . فأخضعوا سلطتهم لحرية البحث واكتشفوا انها تستمد منشأها من الشعب ، وقد تبثت الرابطة الكاثوليكية هذا التعليم عندما تصبح طاعة الملك خطراً على الايمان .

وفي الادب تهيى . اما جي رابليه (Rabelais) واعتماد الطبيعة في استلزامه كل شي . منها ولم تعد شكوك مونتائين Montaigne جواً صالحاً للفلسفة . وحسبنا ان نقرأ الفصلين الاولين عن كتاب القوانين لسراز De Legibus .
» Suarez ، de لتعلم ما احرزته فكرة الفردية من غم منذ عهد القديس توما .

1) G. NEYRON : *L'individualisme et la société spirituelle*, in *Revue Apologétique*, t. 65, (1937), p. 385.

واليك فيما يلي نقطة الانطلاق ومحور فكرة هذا الكتاب الضخم .

« Jus est facultas quaedam moralis quam unusquisque habet vel circa rem suam vel ad rem sibi debitam » . (L. I, ch. 2 et L. II, ch. 17).

هذه هي الحقوق الفردية التي اجلسوها على عرش العلم ، ولقد اخذ عليه بعضهم نظريته الديمقراطية في اصل السلطة بيد انها ليس فيها شي . من الفردية قط وإن غالى بعض المقالة في ذكر ميزة ارادة ذي السلطان في امر منشأ السلطة .

وعندما كلغه السفير البابوي في مدريد ان ينتقض نظرية حتى الملك الالهي التي توسل بها جاك الاول ملك انكلترا ليعبر الموانع التي تحول دون وصوله الى العرش « كما فعل من قبل الاباطرة وفيليب الجميل » وضع سوارز تعليماً وهو تعليم « Vittoria » الذي يحاكي تقريباً تعليم القديس بيلارون « Bellarmin » وهناك لاهوتي آخر دولوغو « de Lugo » من جمعية الآباء اليسوعيين علم في روما واشتهر فيها وقد رفاه البابا اوربانوس الثامن الى رتبة كاردينال سنة ١٦٤٣ قد عرف الحقوق الفردية بقوله التالي :

« Praelationem quamdam moralem qua hic homo praefertur moraliter aliis in usu talis rei propter peculiarem connexionem quam res habet cum eo » .

وانه لتعريف لا يمتنع كل الطوع ولكنه كان ايضاً نقطة الانطلاق
لكتابه « de Justitia » .

بـ

والى اي شي . آلت اجتماعية الاقدمين ؟ نعم ان لها بعض الانتصار . منهم الطوباوي توماس مور بطابعه المبكر الشريف ، الذي مات في سبيل الايمان الروماني سنة ١٥٣٥ فقد وصف مثله للاستي في جمهوريته . (ايتوبيا) Utopie التي لا وجود لها وقد استوحى جمهوريته من افلاطون وخاصة من الانجيل . وفي القرن التالي ظهرت مدينة الشمس لكامبيللا (١٥٥٨ - ١٦٣٩) ومن ثم ازوت الاجتماعية في جرّ الحلم .

(له صلة)